

والآن نعرض تراثنا ، بعد فهمه فهماً محرراً ، على المقاييس النقدية والقيم الأدبية التي وضعها للشعر الجاهلي قدامى النقاد ممن تلقوا هذا التراث وتذوقوه بمزاج بيئاتهم ، وقوموه بموازين عصورهم .

فماذا نرى ؟

(١) لقد احتفوا أيما احتفال ببضاعة المرتزقة من الشعراء ، وحرصوا أشد الحرص على رواية الشعر الذي قيل في بلاط المناذرة والغساسنة . ولم يكتفوا بأن يجعلوا « المدح » أهم أغراض الشعر ، بل زادوا فجعلوا المدح غاية القصيدة العربية بوجه عام ، فينقل « ابن قتيبة » مذهب أصحاب عمود الشعر الجاهلي :
« إن مُقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والد من والآثار ، فبكى وشكا ونخاطب الربيع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين . . ثم وصل ذلك بالسبب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب . وليستدعى لإصغاء الأسماع
« فإذا استوتق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عتّب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحرّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعر ، فإذا علم أنه أجب على صاحبه حق الرجاء والتأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضّله على الأشباه . وصغّر في قدره الجريل » (١) .

ثم عقب « ابن قتيبة » على هذا بقوله : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر » (١) . ويشهد تراثنا أن المدح لم يكن غاية القصيدة وعمودها ، إلا عند المتكسبين بالشعر : فظرفة وقف بأطلال حولة ، وبكى ووصف راحلته ، ثم لم يتخذ هذا كله حيلة للعطاء ، ولم يقصد به إلى هر ممدوح للسماح وبعثه على المكافأة . وكذلك فعل الحارث بن حلزة . وقف بالأطلال وبكى إبدان « أسماء » بالين ، ثم

(١) التمر والشعراء ٧٥/١ ط المعارف